حافظ بك ابرهيم

اثر حياته في اخلاقه وشعره

بمناسبة ذكراه

بقلم السيد احمد العجان

تمهيد :

لست أحاول التحدث عن نواحي الدراسات المختلفة في أدب حافظ ، فان مباحث شعره المتعددة لا تأتي عليها لمحة سريعة ووقت قصير ؛ ذلك لأن العاطفة في رثائه موضوع دراسة ، ونداعي المعاني في خمرياته موضوع دراسة ، وظرفه وفكاهته ومدحه ووصفه كلها محل بحث وتناول وتحليل . ولقد تكلمنا [1] عن حافظ (الشاعر الوفي لمصر) في ذكراه الثانية ، وسنتكلم اليوم عن ناحية جديدة لها متين الصلة بالمجتمع ، وكبير الأثر في حياتنا العامة ، وهي أثر حياته في أخلاقه وشعره

— ١ —

نشأ حافظ ابراهيم — رحمه الله — نشأة شعبية ، قد زخرت بألوان العيش ، وتقلبت بين مُتع دنيا لم تشبعه ، وبؤس زمان غلب عليه ، وعاش مسكيناً وبائساً في مجموع حياته ، لا نستطيع أن نحدد صفوه ونعيمه بشهر معلوم ، ولا بسنة ، ولا بفترة من الزمان طويلة ؛ فانه قد يكون في اليوم الواحد شقياً وسعيداً ، بائساً وغنياً ، إلا أنه في المجموع متغلب البؤس ، متداني الرزء ، غير مجدود

وما النعيم لديه إلا فترات يخلقها ما فيه من ظرف وسرح ، وتبعثها مداعباته وفكاهته ، ويولدها تفاؤله بالمستقبل ، ويقينه في الظفر ، ثم ما يراه في العلم والفضيلة من تقريب للسعادة ، وسمو بالروح

وهذا القدر من الظرف والمرح هو الذي هيأ لحافظ عطفاً على فقره ، وولد فيه حناناً من بؤسه ، وحببه إلى الصحاب والعارفين ، ودفعه إلى مواساة البائسين ، ومشاركة المحزونين ، فالمح صح أن في البؤس ذلة وانكساراً ؛ فان في الحنان ميلاً إلى البر ، واندفاعاً إلى الصدقة

(١) العدد ٥٦ من (الرسالة)

— ٢ —

كان لهذه النشأة أكبر الأثر في صدق شعوره وإحساسه بالآلام ، وتعبيره عنها أدق تعبير ، ورسمه صوراً شفافة واضحة لألوان البؤس التي يكتوي بنارها الشعب ، ويقاسي بسببها العذاب

وجدير بنا أن نتساءل : أكان مدفوعاً إليه بنفسه ، مطبوعاً في حنانه ؟ أم هو البيان يثيره والشعر يحفزه ؟ أجاب حافظ — رحمه الله — بما يقطع كل شك ، ويقضي على كل تأويل :

ذقت طعم الأسى وكابدت عيشاً ... دون شربي قذاه شرب الحمام
فتقلبت في الشقاء زماناً ... وتنقلت في الخطوب الجسام
ومشى الهم ثاقباً في فؤادي ... ومشى الحزن ناخراً في عظامي
فلهذا — وقفت أستعطف النا ... س على البائسين في كل عام

ولقد عرف إحساسه خلق كثير : عرفه صديقه الجليل الأستاذ الشيخ عبد العزيز البشري ، فقال في المرآة ، : « على أنه ما فتئ طوال أيامه يشكو البؤس . . . ولعل هذا من أنه نضجت شاعريته في باب (شكوى الزمان) ، وقال فيه مالم يتعلق بغباره شاعر ، فهو ما يبرح يطلب البؤس طلباً ، ويتفقده تفقداً . » ولا ينبئك مثل صديق

وعرفه كل من خالطه وعاشره ، بل عرفه كل من قرأ شعره ، وتصفح ديوانه الذي هو صورة من نفسه

«قد دروا أن الشعر في كل أرض ... هو من نفس أهلها منزوع »

— ٣ —

إذن كان حافظ يتطلب البؤس والبائسين تطلباً ، ويتفقدهم تفقداً ، وكانت لديه رغبة قوية صادقة في مشاركة البائسين آلامهم ، ومشاطرته أحزانهم ، « والرغبة [1] الحق هي تلك القوة الروحية التي توحي إلى الشخص القيام بالشيء بهمة لا تعرف الكلال ، ولا تقف دونها عقبة : رغب « ابراهام لنكولن » في تحرير العبيد يوم ذهب مع بعض العمال إلى السوق ، فوجد جارية تباع وتشترى ، فتألم لبيع الانسانية وشرائها الألم كله ، وتمنى أن لو أعطى سلطة حتى يضرب على الاسترقاق بيد من حديد ، فأعطى الفرصة بعد زهاء ثلاثين عاماً ، بانتخابه رئيساً للجمهورية في ولايات أميركا المتحدة ، فكان من أوائل أعماله ، العمل على تحرير العبيد

(١) الأستاذ محمد عطية الابراهي

وإن شدة الرغبة فى الاصلاح الاجتماعى هى التى جعلت « شارلز ديكنز » أكبر كاتب ومصلح اجتماعى بانجلترة فى القرن التاسع عشر

وإن الرغبة فى أعمال الآلات هى التى جعلت « أديسون » أكبر مخترع فى القرن العشرين . والأمثلة كثيرة لا حصر لها »

وهذه الرغبة كانت قوية لدى حافظ ، تهزه ويجيش بها صدره ، صادقة غاية الصدق ، أراد بها إنقاذ الشعب من ذله ، وتحريره من إساره وعبوديته ؛ فلست أحسب رجلاً وهبه الله إشفاقاً على البائسين ، وحناناً على صرعى الفقر ، وضحايا الأملاق ، ومنكوبى الزلازل والغرق والحريق كشاعرنا العظيم ؛ فهو يرسم ببيانه الذى يطاوعه صوراً ناطقة تكاد تتجسم أمامك ، وتمثل بين يديك ، تسمعك أنينها وتوجعها ، وتبثك آلامها وتفجعها ، وتحرك فيك ما كمن من عطف واستتر من حنان . فما سنحت فرصة إلا غرد بالألم ، ولا حانت مناسبة إلا دعا إلى الرحمة

— ٤ —

ولهذا تراه شديد الولوع بقصص المرزوئين ، وروايات المعدمين . شغف « بالبؤساء » فترجمها ، وهام بها فنقلها إلى لغة قومه ، لأن فيها إرواء لعاطفته ، وغذاء لنزعته ، وتعبيراً صادقاً عن خلجات فؤاده ، ولأنها منتجع خاطره ، ومهوى قلبه . واختار لها من الألفاظ والأساليب ما يذيب قسوة الصلد رقة ولياناً ، ويخترق أذن الأصم فيضحى سميعاً . ولأنها تمثل لوناً من الانسانية المعذبة ، وطائفة من أسرى العوز ، وضحية من ضحايا تتكرر على الدوام ولا تنقطع ، تتكاءدها الهموم ، وتمثل بها خطوب الزمن ، وتنهشها أفاعى الضنك على مرأى من السراة وأولى الأمر : فلا يخلصها منقذ ، ولا يدافع عنها نصير

— ٥ —

ثم لهذا ترى الغزل فى شعره قد توارى واختبأ ، ولا نستطيع أن ننسب حافظاً إليه ، لأنه أحس بما يشغله عن تتبع المرأة ، ويصرفه عن طلابها

وقد يكون ذلك لضيق اليد ، وخلو الجيب ، إذ من شأن الانصال أن يتطلب المال ، والوقت ، والثراء . ولكنى أرجح الأول ؛ لسمو غايته ، ونبل مقصده ، وموافقته لحياة شاعرنا

ثم لهذا أيضاً بكى كل مصاب ومفجوع ، وناح على كل ضائع وشريد ، واستبكى المحسنين معه ليستدر عطفهم ويستميل قلوبهم

— ٦ —

وإذ أحس أن كثيراً من أهل العسرة وضيق اليد يرمقون المال ويتشهونه ، حتى إذا لم ينالوه يئسوا من الدنيا ، وسخطوا على الحياة ، أخذ رحمه الله يعالج أدواءهم ، ويهدم مذهبهم

فهو مع فقره لم يتبرم بالحياة إلى حد القنوط ، ولم يسخط عليها حتى اليأس . فليس التجرد من المال فقراً ، وتكدس الخزائن به غنى ، ولكنه وسيلة ترفيه وأداة رغد ، فان لم يفد متاعاً ولم يكسب مغنماً ، فلا خير فيه ولا منفعة منه . وأنه كثيراً ما اجتمع له المال الوفر من كتب ألفها وترجمها ومقالات كتبها وسطرها ، ووظيفة قبضها ، فما استقر عنده ، ولا عمل على ابقائه . قال الأستاذ البشرى فى المرآة : « وهو أجود من الريح المرسلة ، ولو أنه ادخر قسطاً من الأموال ، لكان اليوم من أهل الثراء ، على أنه ما فتىء طوال أيامه يشكو البؤس ، حتى إذا طالت يده الألف جن جنونه ، أو ينفقها فى يوم إن استطاع »

— ٧ —

ثم أمسك بأيديهم ، ونهض بهم إلى حيث المجد يبتنى ، والشرف ينال ، وعزة النفس تكتسب : بالعلم ، بالأباء ، بالكرامة والرزق ووفرة المال ، بالسعى ، بالهجرة ، فأرض الله رحبة واسعة :

وفيها لمن رام الحياة سعادة وفيها لمن رام النعيم مقـــام

والتفت إلى الحاكمين والسراة يستثير عطفهم ، ويحرك الشفقة والحنان نحو مساكين تنتابهم غير الدهر ، وتتوالى عليهم أحداث الزمان ، وبائسين يؤلمهم الفقر ، ويؤذيهم العرى

— ٨ —

وعاطفة المواساة ترتقى بحافظ : فلا تقتصر على مواساة الفقراء والمنكوبين ، وأسرى الحروب والمعلقين ، ولكنها تنوح بالألم ، على كل حالة يعتبرها صاحبها شقاء ويظنها تعساً . على كل حالة تصرع الرجل فيها الشدائد ، وتضعضعه النوائب ، وتهده العظائم والشوائب . على كل حالة يتبدل فيها شأن الانسان من رضى وسكون ودعة ، إلى تبرم وسخط وكراهة ، من شعور بالراحة والسعادة والهناء ، إلى تذمر وامتعاض وموجدة ، فتراه

تواسي ملوكا غاب عن جبينهم التاج ، وسلاطين خلت أيديهم من الملك ، وأصبحوا يحتمون بالقانون بعد أن كانوا مصدر القانون ! ويخضعون للنظام وقد كانوا يصدرون النظام ! ويبتدئون بالتحايا العارفين وقد كانوا بها يبتدأون ، ولهم مراسيم تقضى وواجبات تؤدى . . . ! !

هذه الامبراطورة « أوجيني » زوجة نابليون الثالث تقدم مصر بعد زوال ملكها ، فيرفع لها حافظ تحيته ، بل مشاطرته ومواساته :

إن يكن غاب عن جبينك تاج ... كان بالغرب أشرف التيجان
فلقد زانك المشيب بتـــاج ... لايدانيه فى الجـــلال مدانى
ذاك من صنعة الأنام وهـــذا ... من صنيع المهيمن الديان
فاعـــذرينا على القصور كلانا ... غيرته طوارئ الحدثان

وقال فى فتنة الآستانة موجهاً إلى السلطان عبد الحميد صورة من التأسي والتصبر ، مشفقاً عليه باكياً ، بعد أن كان مغيظاً حانقاً ، يعيب على الشامتين شماتهم ، وينتقص رجولتهم ، ويبين أنه لازال خارج الحكم عبد الحميد كما كان مملكا حاكما :

كنت أبكى بالأمس منك فمالى ... بت أبكى عليك عبد الحميد
فرح المسلمون قبل النصارى فيـــك قبل الدروز قبل اليهود
شمتوا كلهم وليس من الهمـــة أن يشمت الورى فى طريد
ما عهـدنا الملوك تبكى ولـكن ... علّها نزوة الفؤاد الجليـــد
شفع الدمع فيك عند البرايا ... ليس ذاك الشفيع بالمردود
دمعك اليوم مثل أمرك بالأمـــس مطاع فى سـيد ومسود

ولعل هذه الفواجع المتكررة ، والأرزاء المتتابعة ، التى يستوى فيها الفقير لا يجد قوتاً ، والشريد لايعثر على مأوى ، والملك لا يأمن غدر الدهر وخيانة الزمن ، والسلطان لايستقر به الجاه ، ولا تدوم له العزة — لعل هـذه الفواجع — هى التى جعلت حافظاً ينحى باللائمة على حواء أمنا الأولى ؛ لأنها ولدتنا ولم توص الزمان بنا خيراً ، مع عرفانها بصروفه وأكداره :

لم تـــلدنا حواء إلا لنشقى ... ليتهـــا عاطل من الأولاد
سلمتنا إلى صروف زمان ... ثم لم توصهـــا بحفظ وداد

ولـكنه فى غضبه هذا لم يذهب كما ذهب غيره : يدعو الموت ويتطلب مبارحة الحيـاة وفراق الدنيا ، ولم يكن كمن قال : « فيا موت زر إن الحياة ذميمة » ؛ ولا من قال : « ألا موت يباع فأشتريه » ؛ بل فطن لما فرط منه ، وانتبه لما بدر ، فنفض عن نفسه غبار الشجو ، وكابوس الجزع ، فهو يسوءه أن يضيق ذرعاً بدنياه ، ويؤكد أن الاستسلام للألم مما يشينه ، وقد يعوقه عن تأدية رسالته . فالمواساة ليست بكاء فقط ، أو ألماً فحسب ، ولـكنها : تسرية هموم وتخفيف مصاب ، ثم هى فوق ذلك جلب منفعة ، وإكساب غنيمة ، وليس فى مقدوره أن يخدم الفقراء والبائسين إذا ضاق بالحياة وسخط على الدنيا ، وانزوى بعيداً ، لا يتصل بالحاكمين ، ولا يتعرف ماعند المحسنين

— ٩ —

ولقد عرف أن تخليد الذكر إنما يكون بالاحسان ، فهو أبقى على الزمن ، وأدوم فى التاريخ ؛ فأخذ يغرى الحاكمين بالعطف على أبناء الشعب والعمل على إسعاده ، ولا سيما أن منصب الوزارة ليس دائماً ، ولـكنها الصالحات والمؤسسات الخـــيرية أبقى وأكثر دواماً :

إن المناصب فى عزل وتولية ... غير المواهب فى ذكر وتخليد

وأغرى السراة بالانفاق على الفقراء ، فلقد يكون منهم الزعيم السياسى يخلص الوطن وينقذ البلاد ، أو الرئيس الدينى يرعى الأخلاق ويحمى الشريعة ، أو الشاعر النابغة يهز القلوب طرباً ، ويثقف العقول بياناً وحكمة :

أيها المثرى ألا تـكفل من ... بات محروماً يتيماً معسراً
أنت من يدريك لو أنبته ... ربما أطلعت بدراً نيرا
ربما أطلعت (سعداً) آخرا ... يحكم القول ويرقى المنبرا
ربما أطلعت منه شاعرا ... مثل (شوقى) نابهاً بين الورى
ربما أطلعت منه (عبـده) ... من حمى الدين وزان الأزهرا

* * *

كم قضى البؤس على موهبة ... فتوارت تحت أطباق الثرى
كل من أحيا يتيما ضائعا ... حسبه من ربه أن يؤجرا

ثم نراه يبين لأولئـكم السراة أن لا قيمة للمال إذا لم يعصمنا من الفقر ، ولم نؤسس به الملاجئ ، ودور العلم ، وبيوت الشفاء ؛ فان الدينار نفرح به مادام فى أيدينا ، حتى إذا ما دخلنا به السوق كان والدرهم سواء . والمال الـكثير إذا حل الغلاء ؛ يكون قليلاً يمضى سريعاً

نهش إلى الدينار حتى إذا مشى ... به ربه للسوق ألفاه درهما

فلا تحسبوا فى وفرة العلم لم تفد متاعاً ولم تعصم من الفقر مغنما
فان كثير المال والخفض وارف قليل إذا حل الفلاء وخيما

— ١٠ —

ولقد بصر بلذع السؤال ومرارته ، وألم الاستجداء وحرقته فأهاب بالمحسنين أن يصدروا عن عاطفة ، وألا يحرجوا المحروم ؛ فان خير الصنائع ما تنبو بحاملها عن الاهانة ، وإن الذى يجود بعد الحاح وطلب كثير ؛ لهو المعدود من البخلاء :

خير الصنائع فى الأنام صنيعة تنبو بحاملها عن الأذلال
وإذا السؤال أتى ولم يهرق له ماء الوجوه فذاك خير نوال
من جاد من بعد السؤال فانه وهو الجواد يعد فى البخال

وهو لذلك يربأ بنفسه أن تمد يده لذى منّة ، وأن تبسط لمن يستعذب سؤال المحتاج ، أو من يمتز بغناه ليسخر من مسهب معوز ؛ فيعف ويودّ لها البلى قبل سؤال الدنىء اللئيم

أيا يد ما كلفتك البسط مرة لذى مِنّة أولى الجميل وأبخلا
فلله ما أحلاك فى أعين البلى
وان كنت أحلى فى الطروس وأكرما

— ١١ —

والحافظ — رحمه الله — مذهب فى الاحسان ، فهو يرى أنه ليس منة وفضلاً يفخر به ذووه ، وتعلو به رؤوسهم وتشرف أقدارهم ، وانما هو واجب على المثرى أن يؤديه ، وحق للفقير يجب أن يوفيه ، ودين لا يفر من قضائه الا مماطل ، ولا يهرب منه الا نذل دنىء . والاحسان فى نظره يستطيع كل انسان أن يؤديه :

بالقول !! يخفف به الألم عن الشاكى ، ويثير به هم أولى العزم والمروءة والنجدة

وبالدمع !! مشاركة للمحزون فيما أحزنه ، وللمهموم فيما أفجعه وللمصاب فيما أصابه

وبالمال !! الذى هو العون فى قضاء الصوالح ، والجالب للنفع ، والدافع للضر ، به تقضى الرغبات ويؤدى المطلوب قال فى زلزال إيطاليا :

سلام على الأولى أكل الذئـ ـب وناشت جوارح العقبان
وسلام على امرئ جاد بالدمـ ـع ، وثنى بالأصفر الرنان
ذاك حق الانسان عند بنى الانـ ـسان . لم أدعكم إلى احسان

(البقية فى العدد القادم)

السيد محمد العجاتى

الى الأستاذ امين الخولى :

حول الفقه الاسلامى
والفقه الرومانى
للأستاذ صالح بن على الحامد العلوى

قرأت ما كتبتم رداً على مقالى عن الفقه الاسلامى والرومانى وأشكركم على حسن ما ظننتم بى من الغيرة الدينية وجميل الأدب فى النقاش .. وبما أنك أيها الأستاذ قد تنكبت فى ردك جوهر الموضوع فى مقالى إلى ناحية أسلوب التفكير وصحة الانتقال والاستنتاج — كما عبرت — مكتفياً ببيان أنك قد اطلعت على الموضوع نفسه وأنه قد نشر فى مصر — وربما بنصه — منذ ربع قرن مضى الخ ، وقلت إنك قرأته ولا تزال تذكره جيداً ومع ذلك قلت فيما قلت عن تأثر الأوزاعى بالفقه الرومانى الخ

فانى أقول لك — على تسليم ما ذكرت — : انى لم أكتب ما كتبت متّهماً لك فى معارفك ومعلوماتك ، ولا لأن أقنعك أنت وحدك فقط دون الجم الغفير من قراء (الرسالة) القراء الذين قد قرأوا ولا شك رأيك ورأى غيرك فى الموضوع وإلا لما كان الأمر فى حاجة إلى نشره فى صحيفة سيارة كا(لرسالة) ، فالأمر قد صار أعم من أن يختص بى أو بك . أفليس من اللازم أن تجيب — ولو بايجاز عن كل ما كتبتُ وتبسط للقراء رأيك مدعّماً ببراهين لا تنقص — على الأقل — عن براهين مناظرك ، وبذلك تكون قد أنرت السبيل للقراء لأن يهتدوا برأيك ويتفقوا معك على تأثر الفقه الاسلامى بالفقه الرومانى . وإلاّ فلا معنى لأن تفتح باب البحث مختاراً ، ثم إذا دعيت إلى بسطه عمدت إلى سَدّه متعللاً بضيق الوقت

لا يا أستاذ ! إن الوقت الذى تعتذر بضيقه الآن قد اتسع لدرس علوم وفنون وصنائع قد ضاق عن أقلها الزمن الماضى ، فلماذا يضيق ذرعاً بالخوض فى هذا البحث وحده ؟

وإذا كان قراء الصحف الأسبوعية لا ينشطون للمناقشة الفنية